التكييف الحضاري
وأصول الفكر العربي المعاصر

بقلم الدكتور محيي الدين صابر

الفكر والمجتمع

الفكر العربي يمر في لحظات تاريخية حاسمة ، ومن الخير ان نتعرف على طبيعته ، وأن ندرس مصادر القوة فيه فننميها ، وان نتبصر مواقع الضعف فنعالجها ، وان نحدد شخصيته لان ذلك يحدد بدوره الشخصية العربية اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا .

واذا كان الفكر هو الصورة المجردة للتطبيقات العملية لنشاط الانسان في المجتمع ، وهو التنظيم العقلي للتنظيمات الاجتماعية العاجلة القائمة او هو الوجه الثقافي للحضارة المادية ، اذا كان ذلك كذلك ، فان الفكر يتأثر بالمجتمع بالقدر الذي يؤثر المجتمع فيه فهما يتعاملان فاعلية وتأثيرا .

وهكذا ينمو الفكر كلما نمت الحياة التي ينبع هو منها ، والتي يعبر هو عنها بطبيعته المجردة ويتسع كلما اتسعت ، لان الفكر نشاط وظيفي ، ذو دور رئيسي في تحريك قوى المجتمع وتطويرها .

والفكر العربي ، بداهة ، هو صورة الحياة العربية ، نشأة وتطورا ووظيفة ، وفي تاريخنا افكار عربية بقدر الحيوات العربية التي تواردت على حلقات التاريخ .

فالفكر العربي اليوم ، يختلف نوعيا وروحيا ، عن الفكر العربي التاريخي ، بقدر اختلاف حياة العرب انفسهم اليوم عن حياتهم قبل قرون ، فقد كان المجتمع العربي مجتمعا بدويا يمارس حضارة رعوية في الغالب الاعم ، على ان مجموعات اخرى منه كانت ذات حضارة زراعية بادية في جنوب الجزيرة ، فجاء الفكر العربي بدويا رعويا ، انعكس عليه نشاط المجتمع فأبرز الفضائل والمثل البدوية الرعوية ، وهي صورة عاطفية عن تلك الحياة القائمة على المغامرة والفراغ ، والتي هي بنت الطبيعة الحسية القاسية الشحيحة .

والمغامرة تمثل جماع السلوك البدوي : وهي احيانا ايجابية واحيانا سلبية . فالشجاعة والكرم والوفاء والاخذ بالثأر ، وفكرة العرض ، كل ذلك يرجع في اصوله بالطريقة التي مارستها الجماعات البدوية ، الى المغامرة التي هي وسيلة البقاء في تلك الحياة ، اما الفراغ فهو نتيجة لطبيعة النشاط السلبي امام ثروات الطبيعة وقدراتها .

الفكر العربي والثقافة الاسلامية :

كان ذلك ، والمجتمع العربي يتطور تطورا تهيأت معه الامور لانبعاث الرسالة الاسلامية بتنظيماتها ومثلها ووسائلها ، فاستوعبت الحياة العربية التي انتقلت معها ، واندفعت من اطارها التاريخي ، ومدارها الحضاري الى مجالات اخرى ، هي مهد لحضارات زراعية مستقرة .

وتصرمت فترة الانتقال ، والعرب يأخذون فيها التمكين للدعوة الاسلامية خارج نطاق الجزيرة العربية ، محاربين ومقاتلين . واقبلت فترة الاستيطان ، فاستقروا حيث انتهى بهم النصر وحيث حملتهم خيولهم وسيوفهم ، فكل دار فتحوها هي دار للمسلمين على اختلاف حضارتهم وعناصرهم ، وسرعان ما واجه الفكر العربي عنتا واكراها في التأقلم مع الحياة الجديدة والتكيف بها .

ظهر ذلك في العهد الاموي ، في استعلاء الخصائص العربية ، على الشعوب الاسلامية ، ثم اتسعت المفارقة في العهود وبعد ذلك ، فيما ظهر من دعوة في المجتمع الاسلامي ، عرفت باسم الشعوبية ، وطالت المناظرات ، وتشقق الجدل ، وتناول الناقدون القيم الخلقية والحضارية ونوعا من حياة البادية التي عاشها العرب . واستهان العرب بدورهم بحضارات منافسيهم الاقوياء ، ووصفوها بالرخاوة والذلة ، وتهاكموا من الزراعة والزراعيين من اهل البقول مما نجد خبره في النصوص الادبية وفي الروايات التاريخية .

والاسلام وقد اتخذ من البيان العربي تعبيرا ولسانا كان يحمل معه انى انتشر اصول ذلك التفكير في نصوصه المقدسة في القرآن والاثار النبوية ، ومن خلال المناظرات التيولوجية بين بقايا الديانات ، خصب الفكر العربي خصوبة الحياة الاسلامية نفسها فكانت الحضارات الفارسية والسريانية واليونانية والعربية ، تعيش متفاعلة في حياة العباسيين في القصور والاسواق ، وفي جهاز الحكم وفي المعاهد وفي حياة الناس وكل يوم ، وفيما يضطربون فيه من شئون .

ان نوع الحياة العباسية ، بما فيها من سعة وتعقيد ، كان يمثل الترف الفكري ، والنضوج الثقافي في الفكر العربي من خلال الثقافة الاسلامية .

الفكر العربي والثقافات الاجنبية :

ولا بد هنا ، من الاشارة بوصف خاص الى ان الالتقاء الذي تم بين الثقافات الاجنبية وبين الفكر العربي ، لم يكن أساسا الا التقاء بين الثقافة الاسلامية وبين تلك الثقافات ، وليس ادل على هذا من ان الاثار الاولى لهذا اللقاء كانت آثارا تيولوجية ظهرت ، فيما نشأت ونشطت من مذاهب فكرية ، كانت في اصولها تدور حول حرية الاختيار ، وانتجت الاتجاهات المتعددة بين المعتزلة واهل السنة ،

والفرق التي تناسلت منها ، وامتد هذا المنهج الجدلي في البحث فشل حتى الاتجاهات الادبية الخالصة كالخلاف بين البصريين والكوفيين .

والمعارف التي ترجمت ، خارج دائرة الافكار الدينية ، كالطب والكيمياء والفلك : ترجمت لانها كانت ذات صبغة عالمية ، وهذا يفسر لنا الى حد كبير،لماذا لم تختلط الاعمال الادبية الاجنبية خاصة ما كان متقدما منهـــا ، كالاداب اليونانية ، بالاداب العربية .ذلك أن الاداب ترتبط ارتباطا وثيقا بنوع الحياة ، بالانسان الذي ينتجها لما فيها من عنصر الذاتية ، واختلاف نوع الحياة ونوع الحضارة هو الـــذي اضعف الاختلاط الفكري بين العرب . وبـين الثقافـات الاجنبية ، الا في ميدان العلوم للصفة العالمية التي تضمنها ، والا في الميدان الديني ، حيث توجد الى جانب هذه الصفة جزئيا ، الرغبة في تأكيد الدعوة الاسلامية بالمنطق والمقارنة والجدل .

ونستطيع بصفة عامة ، ان نرى التأثير الاجنبي في الميدان الفكري ، كان تأثيرا منهجيا في طريقة البحث اكثر من تأثير المضمون والافكار ، ولهذا قلما اصاب الجوانب الادبيـــة العربية من هذا الالتقاء .

ومع هذا فقد ظل الفكر العربي في مجموعه هو صورة الحياة الاسلامية قرونا طويلة يقوى ويضعف معها واستقبل ما استقبلته من انتصارات وهزائم ، فعاصر الامبراطوريات الاسلامية الظافرة في المشرق والمغرب ، وعاش الحروب الصليبية ، ونكبة التتر ، وكارثة الاندلس ، وكان اسفاف الفكر العربي مساويا لاسفاف التنظيمات الاجتماعية التي يعبر عنها ، حتى قامت الخلافة العثمانية على اســـس تيولوجية ، وفي هذه الفترة بدأت ، وبعبارة ادق ، انتهت المقدمات الطويلة من تسلط العناصر الاسلامية غير العربية على القيادة السياسية الى فصل الصلة بين التراث الاسلامي كتنظيم سياسي وبين الفكر العربي كتعبير عن هذا النظم . وفي اخريات العهد العثماني اتخذت الصلة بينهما نوعا من انواع الصراع ، حين استأثر الاتراك بالحكم ، ولجأ الى عنصـرية اتنولوجية، قاومتها العناصر العربية بمثلها ... وفي هذه الاثناء كان يحدث في العالم تطور عظيم ، فكانت تتحرك الى جانب التنظيم الاسلامي السياسي في الشرق ، القـوميات الوطنية في اوروبا .

كانت الخلافة العثمانية تعمل على تجميع العناصر القومية تحت راية ايديولوجية ، اسلامية ، وكانت اوروبا تعمل على انفصال تلك العناصر ، واستقلالها وشأنها ، وتقوي فكرة القومية الوطنية .

الحضارة الصناعية والتنظيمات السياسية

ولم تنشأ القوميات في اوروبا ، الا نتيجة لعملية طويلة من التطـور الاجتماعـي والاقتصادي والثقـافي فـــي حلقات التراث المشترك للحضارة العربية .

وقامت في التاريخ البشري حضارة جديدة هي الحضارة الصناعية ، التي جاءت بعد الحضارات الزراعية والرعوية ، على مختلف مستوياتها .

واذا كانت الثورة الصناعية، في انجلترا، قد اكدت النظام الاقتصادي لهذه الحضارة ، فان الثورتين الفرنسيـــة والاميركية قد اكدتا النظام السياسي لها ، بتقرير القوميات الوطنية وحق تقرير المصير السياسي للشعوب .

والامتداد الاقتصادي والسياسي من خصائص هـذه الحضارة الصناعية . مما نشأ عنه نظام اقتصادي سياسي عرف باسم الاستعمار .

ذلك ان الصناعة القادرة المكنزة ، لا بد لها من مواد اولية تعمل على تحويلها الى سلع ، والمواد الاولية تجبى من اطراف الارض ، ولا بد من هذه المواد الاولية حين تحول الـى السلع من اسواق استهلاكية ، وفي سبيل احتكار المـواد الاولية ، اولا ، والاسواق ثانيا استعملت الاساليب والحربية وظهرت فكرة الاستعمار كحقيقة في الشعوب الزراعيـة والرعوية والمتخلفة صناعيا .

فالاستعمار كان لازمة عضوية للتنظيم الاقتصـــادي والسياسي لهذه الحضارة الصناعية في مراحلها الاولى ، قبل ان تستقر القيم الاخلاقية النابعة منها ،والمتمثلة في العلاقات المختلفة التي اوجدتها في المجتمع .

وانقسم العالم الى حضارتين ، حضارة صناعية متقدمة، حضارة من سلطة امرة ، وحضارة زراعية متخلفة، حضارة خاضعة مسودة .

التكييف الحضـاري :

والحضارة الصناعية تحمل في ذاتها عالمية شاملة ، لانها قائمة على حقائق علمية ثابتة ، حقائق موضوعية لا تحـد من صحتها نسبية زمانية ولامكانية ، ومن هنا استطاعت ان تغزو العالم كله ، على انها صنعت لنفسها من وسائل الانتشار والذيوع ومن اساليب الامتداد والتسرب ما هـزمت بـه الفواصل الطبيعية والحضارية ، وبدأ انتقال الافكار وتبادلها حول العالم يتم في سرعة مذهلة حقا وهذا هو التبادل غير المحدد ، وسع من العلاقات الاجتماعية ، فارتبط العالم كله في حلقة واحدة من المشاكل والحلول ، بحيث انعـدمت فكرة الجزئية او كادت في هذه الحضـارة التي اصبحـت ضرورة يومية في حياة كل انسان معاصر ، فلم يشـهد التاريخ البشري تشابها وتعميما في نظمه مثلما شهد في هذا القرن. وانتقلت هذه الحضارة بمثلها وفضائلها ورذائلها وصورها التي لا تنتهي والتي لا تكاد تقع تحت حصر الى كل مكان، وقد ادى هذا التلاقي بينهما وبين الحضارات الاخرى الى صراع مقيم وهذا الصراع هو احدى عمليات التكييف الحضاري .. وهذا الصراع يمتد في كل مظاهر الحياة الاجتماعيـــة ، وتضطرب القرم وتهتز المقاييس العامة ، حتى يخلص هذا الصراع الى التمثيل التام للحضارة الصناعية ، والفكر العربي والمجتمع العربي ، قد اوفيا على نهاية هذا الصراع وتمثلت اقوى المجموعات فيهما هذه الحضارة وبقيت آثار هـــذا الصراع في مناطق اخرى في المجتمع العربي ، هي لا شك لاحقة بالقافلة التي تحدو القومية العربية .

قانون التشابه والتغاير

ان الاستعمار كان وسيلة هذه الحضارة وسبيلها الى الحضارات الزراعية والرعوية المختلفة وقد قام بتوريث هذه الحضارات الاصول الفكرية للحضارة الصناعية كالديمقراطية والحرية ، وحقوق الانسان والنظم الادارية والقضائية والاقتصادية الخ ... فنشأ عنصر تشرب مثلها واعتنق مبادئها ، وآمن بوسائلها . وهذا ما ارى تسميته بالعنصر المتشابه وهو يدخل في مرحلة معينة من النضوج تمكنه من المنافسة في صراع مع الاستعمار وينتصر عليه ليقيم نظاما هو صورة على نحو من الانحاء ، من الحضارة الصناعية .

والى جانب الحضارة الاصيلة ـ الزراعية او الرعوية ـ للمجتمع، عنصر تقاوم فيه، ويمثلها في وجه الحضارة الصناعية، وهذا العنصر يتفق في مرحلة الصراع والتكييف، مع العنصر المتشابه في المقاومة ، ولكن الصراع يبدأ بينهما مرة اخرى حين يخلوان الى انفسهما في مجتمع واحد لان العنصر المتشابه ، يستمر في تمثيل الحضارة الصناعة ومثلها ومبادئها . فالدوافع التي تدفع فريقين من المجموعة لمقاومة الاستعمار مثلا تختلف باختلاف الثقافة ومصادرها، فالثقافة المدنية التي هي نتاج الحضارة الصناعية تقام الاستعمار بنفس مثله ومبادئه باسم الحرية والديمقراطية وبحق تقرير المصير. والثقافة الدينية التي ليست من نتاج تلك الحضارة بل هي تراث روحي للمجتمع تقاوم الاستعمار لانه نظام دخيل غريب في مبادئه وتفاصيله ، في وسائله وغاياته .. لانه شيء يتعارض اساسا في قيمه ، مع القيم الروحية للمجتمع ، ولكنهما يقاومانه معا ، فاذا خرج الاستعمار بشكله السياسي يبدأ صراع اخر بين الحضارتين والثقافتين في تنظيم المجتمع ، ايظل كما هو تنظيما صناعيا ام يعاد بناؤه على اسس من المثل والتقاليد الموروثة عن المجتمعات الزراعية او الرعوية ؟ مثل ذلك ، وجد في الهند ونيجيريا وساحل الذهب ومصر والسودان ومراكش ، وفي كل بلد تحرر من الاستعمار . وهذا كما اسلفت مرحلة حاسمة في عملية التكييف والتمثيل الحضاري وهي تنتهي بانتصار عنصر التشابه .

تكييف الفكر العربي

على ضوء هذه الحقائق الموجزة نحاول ان نتبين كيف تكيف الفكر المعاصر مع الحضارة الغربية الصناعية . والواقع ان جو القومية الحديثة قد تخلل كيان الخلافة العثمانية . ووقفت العناصر العربية صفا واحدا تطالب بالاعتراف بالقومية العربية واتخذت هذه المطالبة صورتها النهائية خلال الحرب العالمية الاولى التي انتهت فيما انتهت اليها الى تقسيم العرب لوحدات استأثرت بها الدول الغربية ، فنقلت اليها مثالياتها الحضارية وتكون العنصر المشابه الذي نافس الاستعمار ، فاخرجه من كثير من مناطقه .

وهنا نلاحظ ان الفكر العربي انفصل عن الثقافة الاسلامية ، كتنظيم سياسي، وحاول ان يقيم كيانا منفصلا. وليس معنى هذا انه وضع حدودا بينه وبين الثقافة الاسلامية كقيمة فكرية وتراث روحي ، فانه عسير ان لم يكن مستحيلا تصور الفكر العربي منفصلا عن الثقافة الاسلامية التي يعتبر الفكر العربي مصدرها الرئيسي والاصيل . ولكن معناه ان الحضارة الصناعية اثرت بمثلها الثقافية على الفكر العربي الذي استجاب للمفهوم الجديد للقومية الوطنية ، مقابل القومية الاسلامية بانفصال السلطتين الزمنية والروحية ، الامر الذي كان قد حدث في المسيحية منذ عهد بعيد ، واستفنت الشعوب الاسلامية بدورها عن العربية كتعبير عن ثقافاتها ، واكتفت بتعبيراتها القومية تحت تأثير الحضارة الصناعية ايضا . وليس ادل على تأثير الحضارة الصناعية على القومية العربية من ان الهبة العربية انبعثت من المواطن التي كان اتصالها بتلك الحضارة وبثقافاتها اقدم واكثر . انبعثت من الشام حيث بدأت حركات المستشرقين او نشاط البعوث العلمية الاوروبية فآزر المفكرون من ابناء الشام هذه الدعوة التي تزعمتها عناصر الهاشميين لاسباب سيكلوجية لاقناع المسلمين العرب بالتخلي عن فكرة الخلافة الاسلامية واشعارهم بان الخلافة ليست في العجم وانما في بيت النبوة وفي العرب ولكن الاسس الفكرية للدعوة كانت انعكاسا لتأثير الثقافة الغربية على الفكر العربي .

وقد تبع هذا الموقف الجديد انبعاث فكري للتراث العربي ، وبدأت مرحلة جديدة للتكييف واتخذ هذا التكييف صورة العودة الى الماضي واستعادت مجد الاسلوب العربي في البيان وليست هذه العملية عملية رجعية بل انها تدل على اتساع المضامين الجديدة في الفكر العربي وهذا الاتساع في المضامين استدعى قوة في الشكل وفي الاداء وفي التعبير فكان ظهور الادباء الذين اخضبوا التعبير العربي مرتبطا بتحولات المجتمع العربي . فالبارودي وشوقي وحافظ يواكبون المجتمع المصري، منذ الثورة العرابية الى ثورة سنة ١٩١٩ . ويخرج جيل سليم الاداء . مبين التعبير ، ويحمل البيان العربي عبء مواجهة التعبير عن المدنية الحديثة ويقول حافظ عن لسان اللغة العربية في هذه المرحلة :

وسعت كتاب الله لفظا وحكمة ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف اضيق اليوم عن وصف آلة ... وتجديد أسماء لمخترعات

كانت العودة الى الماضي للانطلاق الى المستقبل بوسائل تعبيرية اقوى ... فظهرت الاساليب البحترية والنواسية والمتنبية والعلائية .

وفي السودان نجد الشيخ عمر البنا والحسين ابن الزهراء يعاصرون الحركة المهدية الثورية ثم يقبل بعدهم ، عبدالله البنا وعبدالله عبد الرحمن والعباسي وصالح عبد القادر في فترات من الكفاح ، ثم شعراء من جيل حديث يذكون نار الوطنية مثل على نور ، والمهدي مجذوب ومنير صالح وحسن طه ومحيي الدين صابر وغيرهم كثير .

وعكف العلماء الادباء من ناحية اخرى على امداد هذه الحركة بالروافد الفنية بنشر وتصحيح المصادر الكبرى للغة والادب ، وكلما اشتد وعي الفكر اشتد تعلقه بتراثه ليحقق منه اكبر قدر من الوظيفة التعبيرية لمقتضيات الحياة الجديدة ، وكان الكتاب والصحفيون قد حملوا العبء الاكبر في تطوير واخصاب الاسلوب العربي .

وبفضل هذا التراث التعبيري المشترك استعاد الفكر العربي وحدته ، وجمع حوله كل العناصر التي تقاسم تاريخنا هذا التراث . كان هذا التطور الفكري يصحب التطور الاجتماعي والسياسي بل كانا صورتين متكاملتين لحقيقة واحدة ، فما يكاد يتم تحرير جزء من الكيان العربي الا ويندفع الى الكيان الاخر ، بمستوى الدوافع الفكرية . وحين ننظر اليوم نجد ان المناطق ذات النضوج الثقافي ، والترشيد الفكري في هذا الكيان، اكثر المناطق احساسا بدوافع الوحدة ، وايمانا بالقومية العربية ، مصر

عن حضارات زراعية في مستويات مختلفة ، وتأثر بهذه المضامين في المثل البلاغية والمناهج التعبيرية ولا نزال حتى اليوم تلك التعابير التي نستعملها وسوديا .

١ ـ اصول الفكر العربي المعاصر :

الفكر العربي كان نتاج حضارة رعوية اساسا ، ثم امتد مع الاسلام ، فعبر تستعير في تشبيهاتها واستعاراتها وتعبيرها كثيرا من ملامح تلك الحضارات: مثل « حصباء در على ارض من الذهب » واستمطرت لؤلؤا من نرجس فسقت وردا وعضت على العناب بالبرد » ومثل اصاب كبد الحقيقة وضرب اكباد الابل » وكثير من الصور الاخرى التي ظل مفعولها البياني نافذا حتى اليوم فلم تستهدف بعد مقاييس جمالية في التعبير ، فالمثل البلاغية القديمة ما تزال قائمة وستظل كذلك دهرا طويلا ذلك لان المثل البلاغية اكتسبت صفة من صفات التقديس التي انتزعتها من القرآن والاثار النبوية وهما اية البلاغة ومثال الاعجاز في البيان العربي فما داناهما وقرب من منحاهما كان بليغا وكان جميلا .

وهذا الفكر الرعوي الزراعي يواجه اليوم حضارة صناعية ذات مثل وتنظيمات تختلف قيما عن تلك الحضارات الزراعية الرعوية ولم تعد تلك الحضارات هي اصول الفكر العربي المعاصر ، اصوله في المضمون لان هذا الفكر يعيش اليوم حضارة صناعية ولكن تلك الحضارات لا تزال الى حد كبير ورئيسي اصول هذا الفكر في الشكل والمثل التعبيرية للسبب السابق ، وهذه الثنائية هي من الصعوبات التي تواجه عملية تكييفه الثقافي ، من الناحية التعبيرية ومن ناحية المثل الجمالية للبيان العربي الحديث .

ان المجتمع العربي تقبل الحضارة الصناعية وقادت العناصر المتشابهة فيه التطور الفكري تحت شعارات مختلفة باسم المدنية حينا وباسم الثقافة حينا آخر وباسم الحرية والاستقلال اساسا ، واصبح موضوع الشرق والغرب الذي طال فيه الجدل قبل اعوام بين المثقفين موضوعا انتهى فيه الناس الى رأي واضح . فلم يعد هناك شرقي ولا غربي ، ولا روحانية ومادية ولكن هنالك حضارات زراعية ورعوية ، تلك التي عاشها مجموعات تاريخية وجغرافية وجردت منها بعض المثل الفكرية ، وحضارة صناعية قادرة فرضت نفسها على العصر كله ، وجاءت بمثل جديدة ، وفيها كثير من التجريد كذلك ، ولكن الذين عاشوا في صراع بين حضارتين كشعوبنا طالما اعتقدت انمثل الحضارات الزراعيةوالرعوية هي الروحانيات وان الحضارة الصناعية ، مادية لا روحانية فيها ، وهذا منطق غير سوي ولا سليم ، فلكل حضارة روحانيتها وفضائلها ولكنها تختلف عن الاخرى في نوعها ووجهتها وفي رأيي ان مثل هذا الحكم ناشيء من عدم المقدرة على التأقلم والتكيف ، وكلما تقدم المجتمع في هذا ، قل شعوره بهذا التناقض ، وهذا ما حدث ، فلم تعتبر هذه المشكلة قائمة اليوم كما كانت قبل اعوام .. فنحن لم نصل الى التخلص من الاستعمار الا بعد ان وصلنا الى مرحلة التشابه مع تنظيماته ومثالياته . فكل تنظيماتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية قائمة على نهج الحضارة الصناعية ، تعلن كل مظاهر هذه الحضارة ، ولكن روحها وحقيقتها ظلتا بعيدتين عنا ، تعيش هذه الحضارة وتعاملها ، وتقومها وتقيسها بمقاييس اخرى ، هي مقاييس اخلاقنا وقيمنا . واخلاقنا وقيامنا لم تنبع بعد من هذه الحضارة ، لذلك كان حكمنا عليها غير سليم . وكان تكييفنا وتمثلنا لها غير كامل .. قبلنا مقدمات هذه الحضارة ، وترددنا في قبول نتائجها .. ولكن الى متى ؟.

ان كتابا وقادة ومفكرين كمصطفى كامل وسعد زغلول ولطفي السيد وطه حسين وهيكل والعقاد وتوفيق الحكيم حملوا لواء الدعوة الى الثقافة الغربية والحضارة الصناعية ، وعملوا على تحويل الفكر العربي الى فكر مشابه . ومن الواضح ان دعوة كدعوة جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، كانت دعوة تمثل العنصر المغاير ، وباتصال الدعوتين وبتحالفهما في فترة الكفاح ضد المظهر السياسي للحضارة الصناعية انبعثت الهبات الوطنية كما حدث سنة ١٩١٩ في مصر ، ولكن نتائج الثورة كانت في يد العنصر المتشابه . وهكذا عاش الفكر العربي الحضارة الصناعية منناحيتها السلبية بمعنى ان صلة المجتمع العربي بها كانت من ناحية ان المجتمع كان مستهلكا لهذه الحضارة ولم يكن منتجا لها ، ومن هنا فقد الفكر العربي اصالة التشابه ، والتكييف التام معها ، وظل الصراع بين شكل الحضارة الجديدة وتعبيراتها وبين بقايا مضمون الحضارة الزراعية الذي يتمثل في التراث العقلي والمقاييس الخلقية تصطرع فكانت الدعوة الى روحانية الشرق هي مظهر هذا التناقض .

ان اصول الفكر العربي المعاصر يجب ان تبحث من خلال عمليةالتكييف والتمثيل للحضارة الصناعية الحديثة بحثا مستقبليا ، لان هذا الفكر عليه ان يعبر عن علاقات جديدة وعن مضامين جديدة واننا يجب الا نفصل المجتمع العربي عن الفكر العربي ، وان هذا المجتمع العربي الى جانب وحدته الاثنولوجية تقوم فيه المصالح الحيوية والمصائر المشتركة بدور جوهري فعال .

ان الفكر العربي لا يمكن ان يتحدد ويتحرر الا اذا اصبح معبرا اصيلا عن الحضارة الصناعية المعاصرة ، ففكرة القومية والديمقراطية وحق تقرير المصير والرأسمالية والاشتراكية وسائر النظريات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ـ انما هي تنظيم عضوي لهذه الحضارة الصناعية ، وما كان يمكن ان تتجاوب مع اي حضارة اخرى ، ولا تطبق فيها ، وقد وجدت اساس هذه النظريات فكريا في مختلف العصور التاريخية ، ولكنها كانت خيالا لا واقع له .

ونحن حين نقبل هذه التنظيمات ، لا بد ان نقبل المضمون الذي ننظمه به فلا يمكن ان ننظم بهذه التنظيمات مضامين اخرى ، لا يمكن تطبيق الاشتراكية على حضارة رعوية ولا حضارة زراعية في مستوياتها الاولى ، وهي كانت كذلك او هي كذلك في مجتمعاتنا .. زراعية غير مكنزة ولا مصنعة ، لان مثل هذا النشاط الصناعي هو الذي يخلق علاقات اجتماعية معينة بين فريق من المجتمع . ومن هذه العلاقات ، وفي سبيل تنظيماتها وتوظيفاتها ، تتدخل هذه التنظيمات . الفكر العربياذن في مرحلة التكييف الثقافي ، وهو يجاهد في سبيل اتمام هذه العملية ، ولما كان غير ممكن فصل الفكر عن العمليات الاجتماعية ، فان مدى هذا التكييف متوقف ضرورة على مدى تكيف المجتمع العربي نفسه لهذه الحضارة الصناعية تكييفا كاملا وتمثلها لها تمثيلا تاما ، بحيث يصبح المجتمع العربي منتجا للحضارة الصناعية نفسها ، وفي مرحلة كهذه تختفي والى الابد ، ظاهرة الاستعمار من هذا المجتمع ، وتتأكد له السيادة وتتحقق الديمقراطية وهما من مثل الحضارة الصناعية وايديولوجيتها ويصبح الفكر العربي من روافد الثقافة العالمية المعاصرة بخصائصه النفسية وبتراثه ومذخور خيراته الذي تختلف عن الشعوب الاخرى ، فتشابه الحضارة المعاصرة لا يتنافى مع التراث القومي الخاص .

ولم يكن شيئا عارضا ولا توافقا زمنيا غير مقدر ان تتضح فكـــرة القومية العربية وتعمق في وقت تتصنع فيه البلاد العربية ، فالقومية العربية شديدة الصلة بمصنع الصلب والحديد في حلوان وبمشروع السد العالي ، وبالحركات التصنيعية في سوريا ، لان كل هذا محـاولة لتكييف المجتمع العربي مع الحضارة الصناعية ، محاولة لجعل هـذا المجتمع منتجا حضاريا ، وهذا بدوره سوف يمحو الثنائية الفكرية ، ثنائية المثل الزراعية الرعوية ، وواقعية المثل الصناعية ، ويحرر الفكـر العربي من المضامين القديمة ، ويحرر الشكل التعبيري للفكر العربي .

وانه من التفاصيل التي لم ترجع الى اصولها ، ما يشكو منه بعض النقاد من دارسي الادب العربي عدم وجود بعض الوان الادب العالمي او ضعفها كالقصة والمسرحية والملاحم ، او من عدم مساهمة الفكر العربي في خلق الاتجاهات الادبية والفكرية التي شهدتها الحضـــــارات الصناعية كالرومانتكية والرمزية والتعبيرية والتكعيبية والسرياليـــة ، والواقعية والتجريدية والوجودية والتشخيصية الخ ...

ذلك ان هذه الاتجاهات كلها نابعة من طبيعة المجتمع الصناعي وحاجاته الى انواع معينة من التعبير، وضروب خاصة من الفهم . والمواقف الفكرية في مراحل تطورها عن نفسها ، وليست نابعة من طبيعة اللغات الاوروبيـة ولا من طبيعة اللغة العربية كما يود بعض الناس ان يفسر الاشيـاء لان اللغة كائن حي ، جزء من ادوات المجتمع ووسائله ، جـزء وظيـفي يتطور ويتسع ويعمق ويقوى ، بالتفاعل مع ظروف النشاط والعلاقات الانسانية ... فالمشكلة ليست مسالة تعبيرية بالعربية او بلغة اخرى ولكنها مسالة نوع التعبير ، وهذه النوعية ترتبط ارتباطا ملزما وشرطيا ، بنوعية المجتمع المعبر عنه .

فالتفكير العربي المعاصر اذن هو في جوهره : تعبير عن حضارة صناعية، وهذه الازمة التي يمر بها أزمة مرت بكل المجتمعات في حالة انتقالهـا من مجتمعات زراعية الى مجتمعات حضارية ، وقد تحدد الخط الـذي يسير فيه هذا الفكر ، بقبول المجتمع العربي لتفاصيل الحضارة الصناعية، ومثالياتها ومبادئها تقبلا كاملا . وان تحديد شخصية الفكر العربي رهن بتحديد شخصية القومية العربية التي لم تعد منذ الان، شخصية اتنولوجية بل شخصية سياسية ، تلعب المصالح المشتركة والمصائر المشتركة فيهـا الدور الرئيسي .

القومية العربية :

فالقومية العربية ، مرة اخرى هي صراع ، ودعوة العناصر المتشابهة ، في سبيل تحقيق اقصى مثاليات الحضارة الصناعية واكثرها عدالة ، في ميدان الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة وهي ليست حركة اثنولوجية بحته بل مصالح حيوية تخللت ذلك الكيان الاثنولوجي التاريخي ، وهي لهذا اوسع مدارا من العنصرية العربية لان تلك المصالح ترتبط بمصالح العالم كله ، ومن هنا كانت القومية العربية أشد ارتباطا بالوســـائل السلمية دوليا فاختطت سياسة الحياد الايجابي ، واعتنقـت فلسـفة التعايش السلمي ، لانها تريد تحقيق تلـك المثـــاليات بالحريـة والسلام. ان ثورة مصر على الاستعمار ، وعلى مضاعفاته من الاقطـــاع والفساد ومستلزماته من الانحلال واثار الجهل والفقر والمرض ، هـي مرحلة اساسية في تطور الفكر العربي لانها مرحلة اساسية في تطور المجتمع العربي .. فهذه الثورة ومعركة بور سعيد التي قوت البـناء النفسي للشعوب العربية ، وعززت الايديولوجية العربيـة ، والفـت اسطورة الغرب والشرق واثبتت ان الشعوب العربية تستطيع ان توحـد كلمتها عند الشدة ، وترتفع الى مستوى الاحداث وان تهزم الغرب اذا استعمل الوسائل المتكافئة : هذه المعركة ، ايضا مرحلة رئيسية في تطور الفكر العربي لانها مرحلة رئيسية في تطور المجتمع العربي ... والقرض الروسي السوري الذي سوف يصنع سوريا ، مرحلة رئيسية في تطور الفكر العربي لانها مرحلة رئيسية في تطور المجتمع العربي .. ومشروع اتحاد سوريا ومصر مرحلة حاسمة وتطبيق عملي في تطوير الفكر العربي، والمجتمع العربي في سبيل ايديولوجية عربية ، هي اطار القومية العربية.

الخرطوم

محيي الدين صابر

صدر حديثا :